



في غضون أسبوعين، تغيرت المعادلة الميدانية في شمال سوريا لمصلحة المعارضين للنظام، وبعد إدلب وجسر الشغور، باتت الخطوة التالية المتوقعة في منطقة الساحل حيث لم يتوقف الغليان في ريف اللاذقية طوال الأعوام الماضية. وعلى رغم حصارات التجويع والبراميل المتفجرة والقصف المتواصل، لم تكن وطأة الطوق الذي تشكّل الغوطتان حول دمشق كما هي الآن.

وثمة تغيير آخر لا يقلّ خطورة سلبياً من جبهة الجنوب وتقدّم المعارضة إلى درعا، التي أخلت منشآتها الحكومية من الأثاث والوثائق. فمع خسائر الشمال، واحتمال استكمال إخراج قوات النظام من حلب، يتركز الخطر على ما يسمّى «عقل النظام»، وهو المنطقة التي بقيت هادئة نسبياً بل إن القوى الدولية سبق وحذرت المعارضة من التعرّض لها خشية وقوع «مذابح مذهبية». ومع ازدياد الضغط من الجنوب والغوطتين، قد لا تعود العاصمة منطقة آمنة للنظام، لذلك أكثرت أوساطه وكذلك أوساط إيرانية أخيراً الكلام عن نقلٍ أو انتقالٍ لما لقيادة النظام إلى طرطوس، ما أوحى بأن الفكرة قيد التداول، ومن مؤشراتها حصول حركة نقل لعائدات الضباط إلى المدينة الساحلية.

طوال الفترة الأخيرة، كان السؤال الأكثر إلحاحاً وغموضاً: أين إيران من الهزائم التي يراكمها حليفها في سوريا؟ في أواخر شباط (فبراير) - أوائل آذار (مارس)، لم يُسجل للإيرانيين أي إنجاز سوى إرسال حملة إلى الجنوب لاستعادة المواقع التي تسيطر عليها المعارضة حول درعا، ولكنهم اضطروا إلى التخلّي عن هذا المشروع الذي انتهى بخسائر كبيرة لـ «حزب الله»، لكنه انتهى خصوصاً بـ «مجازرة الأفغان» الذين وضعوا في الخط الأمامي للهجوم. بعد ذلك، لم يُسمع عن الإيرانيين سوى أنهم السبب المعلن لبداية التخلّص من رستم غزالى، رئيس «شعبة الأمن السياسي»، أولأ بضربيه و «فسخه» وصولاً إلى موته المبرمج. وعدها سعي غزالى إلى التحدث عبر قناة «المستقبل» اللبنانيّة لتوضيح دوره في قضية اغتيال رفيق الحريري ورفاقه، كان بعض الشهود أبلغ المحكمة الدوليّة الخاصة أن غزالى تقاضى أموالاً من الحريري، وهو علق على ذلك بقوله: لست الوحيدة، وأعرف جميع من تلقوا أموالاً. وقد يكون الإيرانيون أيضاً سبباً غير معلن للتخلّص من علي مملوك، رئيس «مكتب الأمن الوطني»، الذي تعرّض بدوره لـ «وعكة صحية»، إذ يقال الآن إن لمملوك اتصالات مع تركيا خصوصاً منذ مهمة قادته قبل أسابيع إلى الحسكة. واستناداً إلى الجلسات الخاصة جداً للضباط القريبين من النظام، فإن الضيق من تسلط الإيرانيين على القرارات والتوجّهات بلغ ذروته، لكن أحداً لا يجرؤ على مواجهتهم أو انتقادهم عليناً.

وبعدما تكرر طرح السؤال: أين إيران، حتى في بعض أوساط «حزب الله» التي وجدت في خطب أمينه العام حسن

أي أن أولويتها انجدبت إلى التحدي الأول من نوعه الذي تتعرض له منذ بدأت انسلاالتها في بلدان المحيط العربي. وعندما أوفد النظام وزير دفاعه فهد جاسم الفريج، إلى إيران، كان إعلام «حزب الله» أكثر من سلط الأضواء على هذه الزيارة التي فُهمَت على نطاق واسع على أنها «استغاثة» ومحاولة لفهم ما يجري في عقل الحليف الأول. وقالت وكالة «سانا» إن الفريج «تلقى وعداً باستمرار الدعم». الواقع أن الإيرانيين لم يعودوا مقتنيين بجدوى أي دعم. صحيح أنهم لا يزالون متمسكين بالنظام، إلا أنهم مضطرون إلى الاعتراف بأن النظام بات عاجزاً عن تأهيل نفسه، وبأنهم لم يتمكّنوا من إعادة تسويقه حتى في إطار المشاركة في «الحرب على داعش».

وفي كل المواقف مما يجري في سوريا، كان واضحاً أن طهران ودمشق معنيتان فقط بالحل العسكري للأزمة، ولم تتوقعا يوماً أن تضطروا إلى مواجهة استحقاقات أي حل سياسي يتطلب تنازلات. ولم يكن هناك ما يقلقاًهما، لا المعارضة المقاتلة التي أنزلها فيها هزائم، ولا أحوال العرب في الإقليم.

لم يعد سراً أن وراء هذه التطورات تغييرًا أساسياً في المناخ الإقليمي، سواء منذ بداية «عاصفة الحزم» في اليمن، أو الانعكاسات المتوقعة لاتفاق نووي تريده إيران تتوسّعاً لتوسيعها في «تصدير الثورة»، والقيام باختراقات في العالم العربي. وبات الوضع المستجد في سوريا نتيجة طبيعية للحال التي أشاعتتها «عاصفة الحزم»، كما لو أنه الخطأ الموازي، والمكمّل، لما يحصل في اليمن. فعندما تبلورت الظروف للتعاون والتنسيق، عاودت القوى الإقليمية الاستثمار في قوات المعارضة السورية، فوّترت لها الإمكانيات لتصنّع الفارق بعد شهور طويلة من العجز والإحباط، وعندما تخلّت الولايات المتحدة للمرة الأولى عن تردها، رافعةً جزئياً «الفيتوا» عن تسليح نوعي ولو محدود لبعض المعارضة، وجدت أن واقعاً جديداً يرتسّم في سوريا.

يُذكر أن واشنطن كانت ردّت مراراً، أن الحل السياسي يستلزم تغيير «المعادلة الميدانية»، وأنه يجب الضغط على النظام لإجباره على «مراجعة حساباته». لكن، يبدو أن واشنطن اضطررت أخيراً إلى التخلّي عن سلبيتها بعدما لمست تصميماً وإصراراً من جانب السعودية وتركيا وقطر على ثلاثة توجّهات: 1- إن الشراكة مع أميركا في الحرب على الإرهاب لا معنى لها من دون التصدّي لضلع النظامين الإيراني والسوسي في هذا الإرهاب. 2- ضرورة التصدّي، مع أميركا، من دون بلوغ محاربة «داعش» في سوريا، أمر واقع فرضه الإيرانيون في العراق، وهو الاعتماد على وحدات من الجيش والميليشيات الشيعية التي ارتكبت انتهاكات وجرائم في محافظتي ديالى وصلاح الدين، وفي الحال السوري عمل الإيرانيون على حصر الخيار ضد «داعش» بالميليشيات التي يستقدمونها، فضلاً عن قوات نظام بشار الأسد. 3- إن محاولات استدراجه النظام إلى «حل سياسي» تعثّرت في جنيف، وفشلت في لقاءات موسكو، بسبب تعويل إيران ونظام الأسد على انتصارات عسكرية حقّاها لاستكمال «الحل العسكري» وإلّا حاصل هزيمة نهائية بالمعارضة، لذلك وجب تصحيح الوضع العسكري للمعارضة، أو لاً بتوحيد ما أمكن من الفصائل المقاتلة المعروفة وتنظيم قدراتها، ثم ربطها بغرف عمليات موحدة، ومدّها بأسلحة نوعية، لتمكينها من المبادرة إلى إخراج قوات النظام من موقع استطاعت الاحتفاظ بها طوال أربعة أعوام.

وعلى رغم أن أي جهة لم توضح ما هي التفاهمات التي قادت هذا التغيير الميداني أو سقفه وحدوده، إلا أن مصادر كثيرة التقطت عبارة لباراك أوباما في حديثه إلى «نيويورك تايمز» (06/04/2015)، واعتبروها إشارة إلى توجّه أميركي مختلف، إذ تساءل عما «يمعن العرب من مكافحة الانتهاكات المريرة لحقوق الإنسان (في سوريا) أو ما فعله الأسد».

هنا سيصرخ كثُر، الأميركيون وعرب، أن ما أو من «منعهم» هو أوباما نفسه، وهناك شهود من داخل إدارته. أما وقد أصبحت

هناك إرادة عربية لفعل شيء، فإن أوباما لم يعد يمانع. وبعد هزائم الشمال والجنوب، لعلها المرة الأولى التي يقلق فيها الأسد، مستشعراً أن «أميركا تغيرت»، خصوصاً بعد إغارة «طائرات مجهولة» على الألوية النظامية 199 و92 و65 في جبال القلمون (أواخر نيسان (أبريل) الماضي)، ومقابلتها بتجاهل تام من جانب إعلام النظام وإيران و«حزب الله».

مع ذلك، لا تزال هناك خطوط حمر على المعارضة، وهي معروفة: عدم إسقاط النظام عسكرياً، عدم التعرض لمناطق العلوين في الساحل، عدم التسبب بانهيار الدولة ومؤسساتها. واقعياً، لم تعد «الدولة» و«المؤسسات» سوى أجسام شبحية فارغة، والجميع متيقن بأن النظام يفيد من الخطوط الحمر هذه لি�تابع القصف بالصواريخ البالستية ورمي البراميل المتفجرة حتى فوق رياض الأطفال، وبالتالي تجاوز كل الخطوط الحمر باستئناف استخدام السلاح الكيماوي. لم يسبق للنظام أن انتهز أي انتصارات عسكرية للتقدم بمبادرة سياسية، ولم يجد استعداداً للمجيء إلى تفاوض على «مرحلة انتقالية»، كما أن أوضاعه المتراجعة راهناً لم تدفعه بعد إلى التلويع بتنازلات مع أن أنصاره المباشرين بدؤوا أخيراً يوجهون إليه نداءات علنية تطالبه بالإسراع إلى «حل سياسي».

الحياة اللندنية

المصادر: